

## مؤسسة الشيخ عمي سعيد ثقافة . تربية . تراث

### الأيام الدراسية العلمية:

من الشيخ عمي سعيد بن علي الجربي [ت 927 هـ / 1521 م]  
إلى الشيخ جمو بن موسى عمي سعيد [ت 1425 هـ / 2005 م]

### المحاضرة الثانية:

مرتكزات التغيير عند الإمام الشيخ  
عمي سعيد بن علي الجربي

### إعداد:

أ. خضير بن بكير باباواعمر<sup>(1)</sup>

---

1- الأستاذ: خضير بن بكير باباواعمر، ليسانس ثم ماجستير في العلوم الإسلامية من جامعة الجزائر، يحضر لشهادة الدكتوراه في جامعة قسنطينة للعلوم الإسلامية، حالياً أستاذ العلوم الإسلامية والأدب العربي بمعهد الإصلاح بغرداية.

# بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## مقدمة

شاء الله تعالى أن يميز الأمة الإسلامية عن سائر الأمم بالبقاء، ويمكنها من قوة ذاتية تحفظ وجودها عبر الأزمان رغم ما يعترئها من الضعف والوهن في بعض الأحوال تتمثل هذه القوة في كتابها الخالد الذي وعد الله تعالى بحفظه في قوله: ( إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ) الحجر: 09.

فكل تراجع أو انحدار يصيب الأمة في تاريخها فإن هذه القوة الذاتية ستدفع بمجدد أو فئة من المسلمين يعملون على إصلاح الفساد، وإفراج الشدة، وهذا ما أشار إليه النبي ﷺ في قوله: " إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها" - أخرج أبو داود في الملاحم باب ما يذكر في القرن المائة -

وسنحاول الوقوف في هذه الورقة البحثية على المنهج التغييرى لأحد المجددين في الأمة الجزائرية المسلمة في القرن 9هـ / 16م وهو الإمام الشيخ عمى سعيد بن علي الجربى - رحمه الله - ليطلع الخلف على مسيرة السلف، ويستخلص من تاريخهم المجيد الدروس والعبر، ويتلمس الطريق التي تكون منها عودة الشهود للأمة الإسلامية بعد طول غياب: (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا) البقرة: 246.

فما هي مرتكزات التغيير عند الإمام الشيخ عمى سعيد الجربى؟ وللجواب على هذا الإشكال فإننا نتبع العناصر الآتية:

### 1. تحديد مفهوم التغيير.

### 2. ملامح إلى بيئة المغرب ووادي مزاب في القرن 9هـ/16م.

### 3. رحلة البحث عن المنقذ.

### 4. الشيخ عمى سعيد الجربى وحركته التغييرية.

### 5. مرتكزات التغيير عند الإمام الشيخ عمى سعيد الجربى:

المرتکز الأول: القرآن الكريم	المرتکز السادس: وحدة الأمة
المرتکز الثاني: السنة النبوية	المرتکز السابع: التعمير وتحقيق الاستخلاف
المرتکز الثالث: العلم	المرتکز الثامن: السلطة
المرتکز الرابع: التاريخ والسير	المرتکز التاسع: التعبئة الجماعية (أو النفير الجماعي نحو التغيير).

المرتكز الخامس : الدعوة (الأمر والنهي)

### تقييم وتعقيب ختامي.

ولا يفوتني قبل الشروع في عرض هذه الدراسة أن أتوجه بالشكر الجزيل إلى مؤسسة الشيخ عمي سعيد بغرداية التي فكرت في تنظيم هذه الأيام الدراسية العلمية سائلين الله تعالى لهم السداد والتوفيق وأن يكفل مساعيهم بالنجاح.

### 1- مصطلح التغيير:

#### أ. المفهوم اللغوي:

غَيَّرَ الشيء أي بَدَّلَ به غيره، أو جعله على غير ما كان عليه، نقول: غَيَّرْتُ داري أي بنيتها بناء غير الذي كان، وغَيَّرَ فلان عن بغيره أي حطَّ عنه رحله، وأصلح من شأنه. وغَيَّرَ الدهر أي أحواله المتغيرة.

#### ب. المفهوم الاصطلاحي:

اعتمادا على الدلالة اللغوية للفظ التغيير عرف علماء التربية والاجتماع والنفس والإدارة مصطلح

التغيير بتعاريف عدة، ومن بينها ما يأتي:

- يرى الدكتور كامل محمد المغربي أن التغيير هو: "التحول من نقطة أو حالة في فترة زمنية إلى نقطة أو حالة أخرى في المستقبل".
- ويعرفه الدكتور علي السلمي بأنه: "تحول في وضع معين عما كان عليه من قبل، وقد يكون هذا التحول في الشكل أو النوعية أو الحالة".
- ويذكر الأستاذ سعيد عطوي مصطفى أن التغيير هو: "عملية تشمل سلوكيات الأفراد وهياكل التنظيم ونظم الأداء وتقييمها والتكنولوجيا وذلك بغرض التفاعل والتكيف مع البيئة المحيطة".
- ويعرفه الدكتور علي الحمادي بأنه هو: "التحول من واقع معين إلى واقع آخر خلال فترة زمنية معينة".
- ويجعل الأستاذ عمرو عبيد حسنة التغيير مرادفا لمصطلح التجديد ويعرفه بأنه هو: "إعادة المعايير للواقع، والتقويم له بقييم الكتاب والسنة، ومحاولة تصويبه، والعودة بمساره ومجراه إلى ينباع الأولى، وتغيير الحال الذي توضع عليه، وانتهى إليه بسبب الإلف واستقرار العادات والتقاليد، وتغلب سلطان التقاليد على فاعلية التعاليم" ويوضح بأن التجديد (ليس إلغاء أو تبديلا أو تعديلا للقيم، وإنما

هو عودة إلى المعايير بالقيم، وإعادة تنزيلها على الواقع، واستئصال نوابت السوء، ومحاصرة البدع والخرافات والأوهام، وعودة إلى إعادة تحريك وتشغيل آليات التغيير الاجتماعي، والتعامل مع السنن الجارية، وهز البرك الراكدة، ومعالجة حالات الاسترخاء والرخاوة التي ألفها الناس، وإعادة فحصها واختبارها وتصويبها).

**وخلاصة القول:** وإن اختلفت تعاريف العلماء لمصطلح التغيير في صيغها اللفظية فهي تتفق في مفهومها العام، بأنه التحول والانتقال من حالة إلى حالة أخرى، وقد يكون المراد بالتغيير في معناه الخاص التجديد، والتطوير، والتحسين، والإصلاح، والتبديل، والتنمية.

## 2- ملامح إلى بيئة المغرب ووادي مزاب في القرن 9 هـ / 16م:

إن فهم أي حركة تغييرية في مبادئها وأساليبها منوط بفهم الظروف التي تنشأ فيها فهما يستوعب الأسباب والملايسات التي تهيأت في بيئة المنشأ، وأدت إلى ظهور تلك الحركة، فهناك تناسب بين الحركات التغييرية وبيئاتها الاجتماعية التي تنبت فيها باعتبارها رد فعل دفاعي على الوضع المتردي الذي آلت إليه. ويمكن لنا تلخيص واقع الأمة بالمغرب الإسلامي ووادي مزاب في القرن التاسع الهجري في العناصر الآتية:

### أ. الوضع السياسي والاجتماعي:

كانت تتقاسم بلاد المغرب في ذلك العهد دويلات ثلاثة: بنو حفص بالشرق عاصمتها تونس، تأسست سنة 571هـ/1175م، وسقطت في يد العثمانيين سنة 981هـ/1589م، وبنو مرين بالغرب عاصمتها فاس تأسست سنة 668هـ/1269م وانقرضت سنة 869هـ/1465م، وبنو عبد الواد بالوسط عاصمتها تلمسان تأسست سنة 633هـ/1235م، وكان موقع مملكة تلمسان بين المرينيين والحفصيين قد جعلها هدفا لأطماع الفريقين، ولكن بنو عبد الواد كانوا يناورون ويتحالفون ويحاربون من أجل البقاء والمتبع للوضع السياسي بالمغرب في عصر الدويلات يلاحظ ما يأتي:

- أنه زمن قلق ومضطرب مشحون بالمؤامرات السياسية والاختيالات والثورات قصد الاستيلاء على الحكم والتوسع في الملك.
- اشتغال الحكام بأبهة الملك وبمظاهر الإمارة لا بوظائفها الحقيقية.
- ضعف هذه الدويلات بسبب نزاعاتها الداخلية ومع مجاوريتها.

ثم انتقل الحكم بعد ذلك إلى العثمانيين الذين أبلوا بلاء حسنا في حماية بلاد المغرب من هجمات الصليبيين. وسعوا في استقرار الأوضاع. وأما وادي مزاب فقد كانت له تبعية اسمية لديوان الحكم، واستقلال ذاتي في تسيير شؤونه يشرف عليه مشايخ من حلقة العزابة في كل قرية، وكانت أوضاع القرى مضطربة لنشوب النزاعات الداخلية والفتن التي تضطرم نارها لأبسط الأسباب.

وقد استشرت العصبية والحمية للعشيرة والقبيلة، وفشت مظاهر الفساد والانحراف في المجتمع. وضعفت سلطة العزابة في الردع والضبط. لكن رغم هذا الوضع المتدهور فإننا نسجل مواقف مشرفة للمزايين وقادتهم في ذلك العهد منها ردهم لهجمات الإسبانيين على سواحل الشمال الإفريقي إلى جانب قوات العثمانيين في كل من مدينة الجزائر سنة 925هـ/1518م، وجزيرة جربة سنة 916هـ/1510م فلم يألوا جهدا في الدفاع بكل ما أوتوا عن أراضي الإسلام وحمايتها.

### ب. الوضع الثقافي:

أما عن الوضع الثقافي فقد انتشر الجهل وعمّ التعصب والتقليد ويعكس هذا الوضع المتردي الإنتاج الفكري في تلك الفترة ولاسيما في العلوم الدينية الذي تميز بطابع التجميع والتحليل لما أنتج سابقا، وغالبيته ردود دفاعية عن الآراء والمعتقدات.

### ج. الانحراف الديني:

أصاب الحياة الدينية في ذلك العهد انحراف في جانبيها العقدي والعملي بانتشار تصورات خاطئة عن حقائق الإيمان وظهور البدع والمنكرات التي لا صلة لها بالدين وتفشي التصوف الغالي المنحرف الذي أذاع في المجتمعات مفاهيم التواكل والجبر والقعود وتعطيل أسباب السعي والتعمير، وذلك نتيجة ابتعاد الناس عن مصدر الوحي قرآنا وسنة.

وقد أدت هذه التحديات الداخلية والخارجية التي تهدد أصل وجود الأمة إلى إيقاظ ضميرها الحي للبحث عن يقاوم هذا الفساد، ويدفع عنها الخطر الداهم.

### 3- رحلة البحث عن المنقذ:

إن الشعور بالآلام التي تعاني منها الأمة والاعتراف الصريح بالعلل التي أصابت كيانها ومجانبة تبريرها يعتبر البداية الحقيقية في العلاج الناجع والخطوة الأولى في التعبير الفعال، والدليل البين على حياة تلك الأمة.

فلقد كانت الأمة بمزاب في القرن التاسع للهجرة تعاني من علل شتى وأزمات عدة تنخر كيانها وتهدد وجودها: جهل، وتخلف، وتشتت، وفساد، وانحراف عن الدين والقيم ذلك مما دفع بحكمائها الأكياس وأعيانها الأماجد إلى الارتحال خارج مزاب 887هـ لغرض البحث عن عالم بصير، ومنقذ حكيم يخلص الأمة من كبوتها الحضارية ويعيد إليها مجدها التليد فكانت وجهتهم إلى جزيرة جربة بتونس حيث كانت يومئذ قلعة علمية ومركز إشعاع بالمغرب الإسلامي.

اتصل الوفد المبعوث من وادي مزاب بعالم جربة ومفتيها المعتمد الشيخ علي بن يحيى الجربي، وطلبوا منه إرسال من يحيى العلم والمذهب في ربوع الوادي، ويصلح من أوضاعه المتردية، فاستجاب لمطلبهم، ورشح ابنه الأصغر "سعيد" وهو بعد امتحانه لأولاده السبعة كلهم فوجده الرجل الذي يجمع المواصفات الحقة لقيادة الأمة: علم راسخ، وذكاء متقد، وحلم واسع، وقوة ناثرة، وصدر رحب فاصطفاه لهذه المهمة الدعوية الشاقة، والعملية التغييرية الصعبة التي كلفت من الوالد وولده تضحيات كبيرة، فأما الوالد "علي" فقد أثر خدمة ولده لدين الله تعالى على خدمته لاحتياجاته العائلية الخاصة، وأثر آلام اغتراب فلذة كبده والابتعاد عن مسمعه ومرآه على متعة المؤانسة ومصاحبة البنين. وأما الولد "سعيد" فقد استجاب طائعا لنداء والده، مستعدا لتنفيذ أمره، وتحمل أعباء الأمانة الثقيلة الملقاة على عاتقه، وكان به يردد قول إسماعيل لأبيه إبراهيم: (يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين) ولقد أثر الولد "سعيد" عيش المهاجر والطريد على العيش بين أهل العيش الرغيد، وأثر التلذذ بمتاعب الدعوة ومشقات التغيير على التلذذ بمسرات الحياة ومباهجها.

فالأمة الجزائرية في تاريخها المجيد مدينة بتضحيات هذا الوالد العزيز والشيخ الجليل "علي الجربي" وولده "سعيد". فما أعظم التضحية وما أجلها في سبيل نصره الدين وخدمة البلاد، وإسعاد العباد.

#### 4- الشيخ عمي سعيد الجربي وحركته التغييرية:

##### أولا: شخصية الإمام الشيخ عمي سعيد الجربي:

أ. نسبه: هو سعيد بن علي بن يحيى بن يدر بن سليمان بن عثمان الجربي الخيري الشهير بـ"عمي سعيد"، وقد ورد بنسب آخر هو سعيد بن علي بن حميدة بن عبد الرزاق بن سعيد الجربي. ينتسب إلى بيت علم وشرف، فوالده هو الشيخ علي بن حميدة بن عبد الرزاق بن سعيد من أبرز شيوخ جزيرة جربة في عهده.

**ب. ميلاده ووفاته:** لم تحدد الروايات التاريخية تاريخ ميلاده بيد أنه عاش في المنتصف الثاني من

القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي، وأما عن وفاته فهناك روايتان مختلفتان:

- الأولى تنص أنه توفي في شهر محرم سنة 898هـ/1492م، وقد اعتمدها معجم أعلام الإباضية.

- وتنص الرواية الثانية أنه توفي سنة 927هـ وقد اعتمدت في هذه الأيام الدراسية العلمية.

وبين الروايتين فاصل زمني كبير يحتاج إلى تمحيص وتحقيق، فرحم الله تعالى الشيخ وأسكنه فسيح الجنان مع النبيين والصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقا.

**ج. تعليمه:** تلقى الشيخ عمي سعيد العلم على مشايخ الجزيرة في عصره، ومن بينهم:

**1-** والده الشيخ علي بن يحيى الجربي، عاش في النصف الأول من القرن التاسع للهجرة، وكان عالما مفتيا معتمدا عليه في الجزيرة، وأبرز عمل قام به إسهامه في بعث النهضة العلمية بمزاب في القرن 10هـ/16م.

**2-** أبو النجاة يونس بن سعيد بن يحيى بن تعاريت الصدغياني الجربي (ق10هـ/16م) كان عالما وبطلا مجاهدا، تلقى العلم عن الشيخ أبي زكرياء بن أفلح الصدغياني، وأبي محمد عبد الله بن أبي القاسم البرادي، وارتحل إلى جبل نفوسة فدرس على الشيخ أبي عفيف صالح بن نوح التندميرتي، ثم رجع إلى الجزيرة وتولى التدريس في جامع "تجديت" بحومة "فاتو" من جهة صدغيان، تخرج على يديه علماء أجلاء نشروا العلم والفضيلة في كل من جزيرة جربة، وجبل نفوسة، ووادي مزاب.

وقد تولى رئاسة حلقة العزابة بجزيرة سنة 908هـ/1497م، وكانت له السلطة العليا في شؤون أهل الجزيرة، وله مؤلفات منها:

- تعاليق على كتاب شرح الجهالات لأبي عمار.

- تقييدات مسائل.

وهو ممن جازت عليه سلسلة نسب الدين عند الإباضية.

**د. آثاره الفكرية:** اهتم الشيخ عمي سعيد بتكوين الرجال وإصلاح أوضاع الأمة ومالحق بها من

فساد، ولم يتفرغ لتصنيف المؤلفات إلا قليلا، فمن جملة آثاره الفكرية:

- منظومة في الفقه.

- فتاوى فقهية.

- خطبتا العيدين.

**هـ. تلاميذه:** أنشأ الشيخ عمي سعيد عند استقراره بمدينة غرداية دارا للتعليم، تولى فيها تدريس مختلف العلوم الشرعية واللغوية، وتخرج على يديه ثلة من العلماء الأجلاء منهم:

**1-** عيسى بن إسماعيل بن موسى أبو مهدي (ت: 971هـ/1564م)، أصل نسبه من عرش أعراب أولاد نايل بالجزائر، وهو من أنجب تلامذة الشيخ عمي سعيد، اشتهر بالعلم والاجتهاد والذكاء والورع، فقد وجهه شيخه لإحياء العلم بمدينة مليكة، وتولى مشيخة المدينة، وكان يلتقي كل يوم بشيخه للمذاكرة والمشاورة في مشهد مشهور بين بلدي مليكة وغرداية يعرف باسم "أدجاين". وقد ترك مؤلفات عديدة في علوم الشريعة والأدب، منها:

- مجموعة من الرسائل والردود والأجوبة.

- كتاب موارين القسط

- جواب لأهل عمان على أسئلة وردت إليه في الأصول والفروع

- رسالة في معنى التوحيد

- ديوان شعر.

وكان الشيخ أبو مهدي حلقة في سلسلة نسب الدين عند الإباضية، أخذ عنه العلم أئمة ومشايخ كثيرون منهم: الشيخ محمد بن زكرياء الباروني النفوسي، و داود بن إبراهيم التلاتي الجربي، وبمحمد بن عبد العزيز اليسجني....

**2-** ولده صالح بن سعيد بن علي الجربي (ت: 949هـ/1542م)، عمل على نشر العلم والدين في مدينة غرداية، تولى مشيخة البلدة بترشيح من والده، ومن أعماله في المجال المعماري حفر آبار للسقي في حي "سالم أوعيسى" بغرداية، كما قبل باستقرار عرش بني مرزوق في المنطقة الذين وفدوا إليها من نفطة في الجنوب التونسي سنة 933هـ/1527 م، وأسكنهم في الحي الذي لا يزال يحمل اسمهم إلى اليوم، وفرقهم على بعض عشائر غرداية قصد التعايش وإدماجهم في التنظيم الاجتماعي الذي يتميز به وادي مزاب.

**و. مقومات شخصيته:** إذا تأملنا سيرة الشيخ عمي سعيد الجربي ومسيرته الدعوية فإننا نستجلي معالم

شخصيته القائمة على خصال خلقية وعلمية اتصف بها نلخص بعضها فيما يأتي:

- **العلم:** الذي اتخذه أساسا لنهضته، فأنشأ دارا للتلاميذ، وألف المصنفات، وكون مكتبة زاخرة.
- **العمل:** إذ لم يعتزل الشيخ الناس وحياتهم بل حمل هموم أمته ونزل إلى واقع مجتمعه ليصلح ما به من فساد.

- **التوضيحية:** إذ أثر الشيخ حياة الهجرة والاعتراب عن أهله ووطنه الأول في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى، والاستجابة لنداء خدمة الأمة.
- **الجرأة في الحق:** إذ كان داعيا للمعروف منكرًا لمظاهر الانحراف والفساد في بيئته، لا يخاف في الله لومة لائم.
- **الحكمة:** التي تتجلى في مواقفه وتسييره العقلاني المتزن لمجلس عزابة وادي مزاب (مجلس عمي سعيد) الذي يعود إليه الفضل في توحيد كلمته، وتفعيل دوره في قيادة الأمة.
- **التخطيط:** في سبيل إنجاح نهضته المباركة في جميع قرى مزاب، وتنسيق المواقف مع مناصريه في كل الظروف والأحوال ولاسيما مع تلميذه المبجل شيخ بلدة مليكة الشيخ أبو مهدي عيسى حيث كانا يلتقيان كل يوم للمذاكرة والمشاورة وتبادل الخطط.

### ثانيا: أقطاب حركة التغيير في مدن مزاب في عهد الشيخ عمي سعيد الجربي:

إن التغيير في البداية قد ينتجه في مستواه النظري فرد أو نخبة ولكنه في النهاية عند التنفيذ والإنجاز هو عملية جماعية متكاملة تسهم فيها الأمة بمجموعها يتحقق إذا توفرت ظروفه وشروطه ومقوماته، وهذا ما تعنيه عبارة "ما بقوم" في قوله تعالى: (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم).

فالحركة التغييرية التي قادها الشيخ عمي سعيد الجربي بمدينة غرداية ما بين سنة 887هـ/1474م إلى سنة 927هـ/1521م مستغرقا في تنفيذها أربعين عاما أي ما يقارب جيلين كاملين كانت شاملة لجميع مدن مزاب الخمس، ففي كل قرية نجد رائدا من رواد هذه الحركة يرسي قواعد الدين ويصلح الأوضاع، وذلك الرائد إما أن يكون من الذين وفدوا مع الشيخ عمي سعيد من جزيرة جربة، أو هو من تلامذة الشيخ ومريديه الأوفياء، والكل يعمل في إطار توجيهات شيخ واد مزاب الإمام عمي سعيد الجربي، وكانت تربط الجميع علاقات وطيدة، وتجمعهم مجالس عتيدة، تُوحّد من رؤاهم، وتنسق من مواقفهم، وتثبت على النهج القويم خطاهم، ومن أبرز هؤلاء نذكر:

### \* من مدينة بنورة الشيخ دحمان بن بلحاج (القرن 10هـ/16م)

هو من علماء جزيرة جربة الذين وفدوا مع الشيخ عمي سعيد، استقر بمدينة بنورة، وكان واعظا ومدرسا وإماما، وتولى مشيخة المدينة باقندار، وأسس مسجدها العتيق، وأسهم في إصلاح أوضاعها الاجتماعية، وحلّ نزاعاتها الداخلية والخارجية، وقد عينه أهل مزاب إماما للدفاع لما هجم على مزاب عدوّ من المغرب يقال له "ابن دومة" الذي خرب خمسا وعشرين قرية، فجهز الشيخ دحمان جيشا مدافعتة وتمكّن من الانتصار عليه.

\* من مدينة بني يسجن الشيخ بلحاج بن محمد بن سعيد اليسجني (900 - 950هـ / 1494 - 1543م)

هو ممن قدم من جزيرة جربة مع الشيخين عمي سعيد والشيخ دحمان قاصدا بلدة بني يسجن فأحيى ما اندثر فيها من العلم، كما سعى إلى لمّ شتات المجتمع اليسجني، وتعزيز الهيئة التنفيذية للعزابة بعناصر أكفاء من أهل العلم والخلق الكريم، وله الفضل في إنشاء أعراف هادفة وهيئات اجتماعية هامة أسهمت في ترقية المجتمع المزابي منها:

- إنشاء هيئة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
- إنشاء نظام قراءة القرآن الكريم والختمات في المحاضر في الجمععات.
- إنشاء حفل الزيارة للأماكن التاريخية المعين بيوم الاثنين الأول من شهر مارس من كل سنة.
- تنظيم تقاسيم مياه شعبة مومو إحدى شعب وادي انتيسا الذي يروي أجنة بني يسجن.

\* من مدينة مليكة الشيخ أبو مهدي عيسى بن إسماعيل بن موسى (ت 971هـ / 1564م)

وهو من أنجب تلامذة الشيخ عمي سعيد، وقد تقدمت ترجمته.

\* من مدينة العطف الشيخ أيوب بن قاسم (القرن 10هـ / 16م)

هو عالم وفقه، تولى مشيخة مدينة العطف بصفة رسمية في عهد الشيخ عمي سعيد الجربي، وقد سعى في إصلاح أوضاع المجتمع وحلّ نزاعاته الداخلية، وقتل في مدينة وارجلان لما وقعت فتنة بين أهاليها وأراد أن يحكم بينهم بالشرع والعقل، فرفضوه وقتلوه. وتولى من بعده مهمة نشر العلم والإصلاح مشايخ أجلاء منهم العالم أحمد بن موسى بن محمد الشهير بـ "الشيخ الميغر" (حي في 970 هـ / 1562م) الذي أنشأ مدرسة لنشر علوم الشريعة وتعليم القرآن الكريم بمدينة العطف تخرج فيها علماء أجلاء.

5- مرتكزات التغيير عند الإمام الشيخ عمي سعيد بن علي الجربي:

استندت حركة التغيير التي قادها الإمام المجدد الشيخ عمي سعيد بن علي الجربي بوادي مزاب في منتصف القرن التاسع الهجري وبداية القرن العاشر إلى مرتكزات اتخذها منطلقا في بعث نهضته العلمية والاجتماعية الرائدة. ونجد أغلب هذه الأسس يشترك فيها أعلام التجديد والإصلاح في عهده بوادي مزاب الذين يعملون بتنسيق تحت قيادته، وإن يكن قد يختلف بعضهم عن بعض في طريقة عرضها، وقد يختص بعضهم ببعض منها، ويختص آخرون بأخرى إلا أنهم تحذوهم روح مشتركة ويجمعهم مشروع تجديدي واحد وسنين أبرز مرتكزاته فيما يأتي:

\* المرتكز الأول: القرآن الكريم

إن كل ما أصاب الأمة الإسلامية في تاريخها الطويل من تأخر وضعف وانحلال لم يفقدها أبدا القدرة على إعادة النهوض من جديد إيمانا بالوعد النبوي الصادق الذي خاطب به الأمة: ( تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما إن تمسكتم بهما: كتاب الله، وسنة رسوله)، فالسبب الأصلي للتحضر قائم بين الأمة إن أخذت به انطلقت واهتدت نحو النهج القويم، وإن تخلت عنه ضلت وانتكست. فلقد اهتمت نهضة الشيخ عمي سعيد بالقرآن الكريم، وبذلت جهودا متضافرة في سبيل تعليمه وتفسيره والعمل بمقتضاه، فتعلقت نفوس الأمة بالقرآن، والتزمت بمدارسته بفضل إنشاء نظام الختمات القرآنية الذي ظهر في ذلك العهد، وفي ذلك أثر عظيم في تربية النفوس وتزكيتها ودفعها نحو الرقي والفلاح.

### \* المرتكز الثاني: السنة النبوية

هي المصدر الثاني في التشريع، ومرتكز الشيخ في نهضته بعد القرآن الكريم، طالما وأن موقع السنة من القرآن هو موقع التفصيل والتبيين كما قال الله تعالى لرسوله: ( وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون )، فكان يقتبس من مشكاة النبوة في خطبه وأجوبته الفقهية معتمدا على الصحيح منها في احتجاجاته، ومستأنسا بالضعاف منها في الرغائب والفضائل، ويظهر أنه كان ملتزما بنهج علماء الإباضية في التعامل مع الأحاديث.

### \* المرتكز الثالث: العلم

إن البدء بالعلم هو منهج القرآن الكريم، والقيام بوظيفة التعليم كانت الغاية من بعثة الرسول ﷺ القائل: (إنما بعثت معلما) فلقد ارتكزت نهضة الشيخ عمي سعيد على التربية والتعليم، ففتح المدارس والأقسام للطلاب من كافة المراحل، وأشرف بنفسه على التدريس وتخرج على يديه تلامذة أكفاء حملوا مشعل النهضة في عهده ثم من بعده، من بينهم: ولده الشيخ صالح بن سعيد، والشيخ العالم أبو مهدي عيسى. وكانت العلوم الإسلامية تحتل الصدارة في الاهتمام في ذلك العهد، أضف إلى ثقافة الشيخ الدينية، و تكوينه الشرعي على يد علماء جزيرة جربة وعلى رأسهم الشيخ أبو النجاة يونس بن سعيد بن يحيى بن تعاريت الصدغياني الجربي (ق10هـ/16م).

### \* المرتكز الرابع: التاريخ والسير

إن الداعية الموفق هو الذي يعتبر من أحداث التاريخ ووقائعه ويحسن توظيفها، والأمة الموفقة هي التي تحتفظ بذاكرتها التاريخية وتستلهم منها الدروس والعبر، فقد قال الأديب رمضان حمود: "إذا جهلت أمة تاريخها

فقد جهلت مستقبلها، وإذا جهلت مستقبلها فقد أسرت نفسها وألقته في يد غيرها"، والله در أمير الشعراء أحمد شوقي:

مثل القوم نسوا تاريخهم	كلقيط عي في الحي انتسابا
أو كمغلوب على ذاكرة	يشتكى من صلة الماضي انقضابا

فإيماننا بالدور التربوي للتاريخ نجد الإمام الشيخ عمي سعيد في نهضته المباركة أولى أهمية كبرى للتاريخ الإسلامي بصفة خاصة، وسير السلف الصالح من خلال دروسه ومؤلفاته، ولعل من أهم النظم العامة التي أنشئت لحفظ ذاكرة الأمة في ذلك العهد هو حفل الزيارة للأماكن التاريخية الذي ينظم كل سنة في قرى مزاب الذي يُنسب إنشاؤه إلى الشيخ بلحاج بن محمد بن سعيد اليسجني أحد معاصري الشيخ عمي سعيد ومؤازريه في نهضته.

#### \* المرتكز الخامس: الدعوة (الأمر والنهي)

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أصل من أصول عقيدتنا الإسلامية، فقيام الأمة بهذا الواجب يجعلها تستحق لقب "خير أمة" كما أكد القرآن على هذه الحقيقة في قوله تعالى: (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) آل عمران: 110.

فقد كان الشيخ عمي سعيد الجربي رجل دعوة مخلصا لدعوته، أهله للقيام بأعبائها الثقيلة شيخ جزيرة جربة والده العزيز بعد أن تلقى دراسته وتكوينه العميق واكتسب من الفضائل العالية مما دفع بوالده أن يصطفيه على سائر أبنائه لهذه المهمة، فقد وهب الشيخ للدعوة عمره فكانت أكبر همه، ومحور فكره وعمله مستعملا شتى الوسائل كالتعليم والتأليف والخطاب المباشر.

#### \* المرتكز السادس: وحدة الأمة

يبقى افتراق المسلمين وتقاطعهم هو الداء الذي أوجب الضعف المحقق والتخلف، فقد عانت الأمة في القرن 9هـ/16م من الشتات والفرق والفتن الداخلية لاستحكام النزعة القبلية، وانتشار الجهل في الأوساط الاجتماعية. هذا ما دفع بالشيخ عمي سعيد ورواد نهضته بقى مزاب إلى الاهتمام بإصلاح ذات البين والقضاء على النزاعات الداخلية والخارجية وتوحيد صفوف الأمة، وتنظيم المجتمع من خلال عشائره ومؤسساته ومجالسه وقد احتملوا في سبيل ذلك تضحيات جسيمة قد تصل ببعضهم أحيانا إلى درجة الحصار أو النفي أو الاغتيال.

#### \* المرتكز السابع: التعمير وتحقيق الاستخلاف

إن غاية الإنسان في الحياة هي تحقيق الخلافة في الأرض والقيام بتعميرها وفق أوامر الله ونواهيه ، ولقد اعتنت نهضة الشيخ عمي سعيد بهذا العنصر الحضاري البالغ فوجهت الناس إلى العمل الجاد في الانتفاع من الثروات المسخرة في هذا الكون واكتساب الصنائع واستصلاح الأراضي للزراعة وحفر الآبار وتنظيم تقاسيم مياه السيل.

وغاية ذلك الحصول على نسق تحضري مستقر للمجتمع والابتعاد عن مظاهر البداوة.

### \* المرتكز الثامن: السلطة

صدق ذو النورين حين قال: "إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن" فالسلطان هنا هو القوة المبصرة الواعية التي تعمل بمقتضى القرآن وتحقق أهداف الرسالة. وإذا اعتبرنا حلقة العزابة هي السلطة الحاكمة المسيرة لشؤون المجتمع المزابي في ذلك العهد فإننا نجد الإمام الشيخ عمي سعيد الجربي قد تبوأ من هذه السلطة مقاما كريما فكان على رأس مجلس قرى عزابة وادي مزاب بيده مقاليد تسيير أمور البلاد والعباد. ويُعدّ هذا مرتكزا أساسيا في إنجاح حركته التغييرية ونشرها. أضف إلى ذلك كون القائم بالتغيير كان من داخل المؤسسة وليس من خارجها مما ضمن لنهضته المباركة التيسير والنجاح.

### \* المرتكز التاسع: التعبئة الجماعية (أو النفير الجماعي نحو التغيير)

مادامت النهضة والتغيير هما عمل أمة بأسرها وليس عمل أفراد كما ينص على ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) فإنه يتطلب في إنجازهما وتحقيقهما في أرض الواقع تعبئة جماعية تحشد فيها قوى الأفراد حشدا كليا لبلوغ الهدف المنشود، وقد ارتكزت الحركة التغييرية للشيخ عمي سعيد هذا العنصر حيث اتخذت من مؤسسات المجتمع: من مساجد، وعشائر، ومجالس، ومدارس منبرا لاستنهاض الأمة وإيقاظ ضمائرهم ودفعها نحو التحضر.

### 6- تقييم وتعقيب ختامي

بعد هذه الدراسة المقتضبة لمرتكزات التغيير في نهضة الشيخ عمي سعيد بوادي مزاب نصل إلى الملاحظات الآتية:

أ. كان هذا النوع من التغيير من أفضل أنواع التغيير لسببين رئيسيين:

**الأول:** أنه جاء بطلب من أهل مزاب واستعداد منهم للتغيير ورغبتهم لما ذاقوا من مرارة الوضع المتردي الذي وصلوا إليه ، وليس هو تغيير مفروض عليهم من الخارج ، وشعور بالألم أول خطوة نحو العلاج.

**الثاني:** كان التغيير الذي قاده الشيخ عمي سعيد الجربي بوادي مزاب منبعثا من داخل مؤسسات المجتمع ، فالقائم بالتغيير إن كان من داخل المنظمة فإن تغييره أفضل وأنجح من الذي يكون في خارجها.

**ب.** أنه كان عملا جماعيا من البداية إلى النهاية ، فمنذ التعرف على الفكرة أو المشروع التغييرى ثم الاقتناع به ثم تبنيّه في أرض الواقع ، ثم تأييده ومناصرته ، هذا ما جعل المشروع يحظى في وسط الأمة بالقبول الحسن.

**ج.** إن أهم مرحلة يجب أن يخضع لها أي مشروع تغييرى بعد تجسيده في أرض الواقع هو مرحلة الرقابة والتطور ، إذ لا ينبغي للإنسان أن يتمسك بوضعية تغييرية واحدة ، بل يجب أن يقوده التغيير إلى تغيير آخر ، فالمعالجة والتطوير والتحسين ممارسات لا يجوز أن تتوقف أبدا فرب تغيير ينفع اليوم ، ولكنه يضر غدا.

#### **د. مقترح مستخلص من هذه الدراسة**

ونحن نحتفل بذكرى خمسة قرون على وفاة الإمام المجدد الشيخ عمي سعيد بن على الجربي يسعدني أن أدعو كافة المشايخ والأساتذة والباحثين المخلصين من أبناء هذه الأمة الطيبة إلى عقد مراجعات علمية تشخيصية لكل المشاريع التغييرية والصيغ الإصلاحية والنهضوية التي قادها علماء وادي مزاب طيلة هذه الفترة بحيث يُجمع بين المعطيات المختلفة بل حتى المتناقضة منها ، ويقارن بعضها ببعض ليخلص من ذلك إلى الموازنة التي تنتهي إلى التمييز والحكم مع مجانبة مسلك التفكير الذي يلتزم الخط الواحد ولا يلتفت إلى غيره ، وقد يلغيه تماما وهو ما يسمى منهج التلاخي والتنافي ، بل يُعتمد الفكر النقدي الذي يجمع بين خطوط عدة يقابل ويقارن بينها. وقد دأب القرآن الكريم على تكوين عقل المسلم على الصفة النقدية وذلك بعرضه للآراء والعقائد المخالفة ومقابلتها بعقيدة الحق ، ثم نقدها ببيان خطئها وزيفها ، فإخذ المسلم الحق ويترك الباطل ، كما ربي الرسول الكريم ﷺ أصحابه على ذلك إذ دأب على مشاورتهم في كل الشؤون حتى اتخذ شعارا له : "أشيروا علي أيها الناس" ليعودهم على تطرح الآراء المختلفة ومناقشتها ونقدها واستخلاص الصواب. ولقد كانت الصفة النقدية ممتدة في تراثنا الإسلامي والإباضي بصفة خاصة في عصور ازدهاره إذ نجد عرضا للآراء الموافقة والمخالفة وبسطها للمقابلة والموازنة والنقد للخلوص إلى الصحيح منها وتمييزه من باطلها (فليراجع على سبيل المثال كتابي أبي حامد الغزالي في مقاصد الفلاسفة ، وتهافت الفلاسفة ، وكتاب ابن تيمية في نقض المنطق ، وكتاب أجوبة ابن خلفون ، وكتاب قواعد الإسلام للجيطالي ، وكتاب بداية المجتهد لابن رشد ، وأوسعها كتاب شرح النيل للعلامة القطب.... حتى إنه لما تغيب الفكرة المعارضة في الواقع فإنها تفترض افتراضا في تلك الصيغة الشهيرة في التراث وهي "فإن قيل كذا قلت كذا").

وخليق بنا ونحن نعيش في وسط يعجّ بإيديولوجيات ومشاريع تغييرية : دينية ودعوية وتربوية واجتماعية وسياسية واقتصادية أن نربي في نفوس أبنائنا الصفة النقدية التي تكسبهم حصانة فكرية تُمكنهم من التمييز والانتقاء ، وتمنعهم من الانسياق وراء كل صوت ناعق. ولا تنعقد هذه الصفة إلا بثلاثة عناصر رئيسة هي :  
**الأول : حرية التوجه :** وذلك بأن يكون العقل حراً في حركته عند التفكير ، ولا يكون مكبلاً بقيود توجهه إلى وجهة خاصة بعينها.

**الثاني : المقابلة الموضوعية :** ونعني بذلك بأن يتجه الفكر في حركته المعرفية إلى أن يبحث في كل مادة من مواد المعرفة عن مقابلها ، أي المواد التي تخالفها مخالفة كثيرة أو قليلة ليقرنها معها ويقابلها.  
**الثالث : التمييز والحكم :** ونعني به أن يتوجه الفكر بعد جمع المادة المعرفية جمع مقابلة إلى النظر فيها نظراً نقدياً يحاكم بعضها إلى بعض ويوازن بينها لينتهي أخيراً إلى تبين مظاهر الوفاق والفراق بينها فتظهر ملامح الصحة والخطأ. وهذا العنصر هو جوهر الصفة النقدية.